مبنى «آل بركات» في السوديكو يحتضن ذاكرة الحرب الأهلية

«بيت بيروت» أكثر من مجرّد «بيت»

حيدر يقف في المبنى المُرمّم (عباس سلمان)

طفل يتأمّل المبنى من الخارج(عباس سلمان)

مسرحٌ داخل "المبنى الجديد" يستوعب أكثر من 200 شخص(عباس سلمان)

زينب سرور 2016-04-27 AM 01:42
نشر هذا المقال في جريدة السفير بتاريخ **2016-04-27** على الصفحة رقم 4 – محليّات

لسببٍ غير مفهوم، كانت الخُطوات متثاقلة. لسببٍ غير مفهوم، كانت العيون تتفحّص بنَهم. هنا جلَس بيار. هناك، قرّر سامي مع الرّفاق مَن سيكون الضّحيّة الآتية. انتبه! الدّوسُ على جثّة أحدهم ليسَ لطيفًا! ابتعد عن أيّ بقعةٍ تشكّ بـ «طهارتها». في تلك الزّاوية قام قنّاصٌ بتلميع بندقيّته. بالتّأكيد، كان يعيش وهم «أنا الأكفأ بين زملائي». هل يُعقل أنّ المنافسة شكّلت حافزاً أكبر له؟ هل يا تُرى قام بزيادة عدد ضحاياه انطلاقاً من وهم «الإيغو» (الأنا المضخمة) الّذي رافقه؟ لسببٍ غير مفهوم، كانت الأيدي تلامسُ تفاصيل المكان. يُحدثُ الأمر نشوةً غريبة. على تلك التّعرّجات أسندَ قاتلٌ ظهره. كيف لنا أن نعرفَ ما إذا كان خائفاً لحظتها؟ بالطّبع كان. كلّ المقاتلين يخافون من/ على شيءٍ ما.

قليلةٌ هي الأماكن الّتي تُحرّك شيئاً في النّفوس. غالباً ما يستحوذ سكون الحجر على المشاعر. في «بيت بيروت» الأمرُ مختلف. القاعدة مُختلفة. هنا، المشاعر مُختلطة: تطأ قدمُكَ المكان، فتشعرُ بالهيبة. تغوصُ فيه، فتشعر بالخوف. تبتسم، تغضب، تتعجّب، وتتماهى مع خيالك الخاصّ. ومع أوّل قصّةٍ تنسُجها عن المكان، تعرف أنّ الغاية من المحافظة عليه قد نجحت: ها أنت، بعد 37 عاماً على انتهاء الحرب الأهليّة اللّبنانيّة، تدوسُ على طائفيّةٍ نهشت الجسم اللّبنانيّ، وتَعتبر، في الوقت عينه، من «غباء السّابقين».

لم تكُن مرحلة التّرميم سهلة. تسع سنواتٍ قضاها الفريق المُكلّف من قبل بلديّة بيروت في العمل. توزّعت السّنين على مرحلتين: خمسٌ ونصف في التّخطيط، وثلاثٌ ونصف في العمل اليدويّ (الورشة). الكادر البشريّ كان ضخماً كذلك. ما بين 200 إلى 300 عامل شاركوا في ترسيخ ذاكرة المدينة. بلديّة بيروت تكفّلت بالعمليّة من ألفها إلى يائها. وقد كلّفها المشروع 18 مليون دولار أميركيّ.

شرفة المبنى المطلة على منطقة السّوديكو (عباس سلمان)

اليوم، عند السّادسة مساءً، تُرفع السّتارة عن المبنى القابع عند تقاطع السّوديكو ـ بشارة الخوري. يُعلن عن انتهاء أعمال البناء والتّأهيل والتّرميم لمتحف «ذاكرة بيروت». أمّا الافتتاح الرّسميّ أمام الجمهور، فيكون في شهر أيلول.

أبعد من مبنى..

طوال السّنين الماضية، لفّ غطاءٌ أخضر المبنى التّسعينيّ. حُجبت طبقاته الأربع عن العالم الخارجيّ بغطاءٍ حرّك حشريّة المارّة. ماذا يفعل القيّمون؟ جاء الجواب دائماً: ترميم. ظنّ النّاس أنّ المكان سيكون على شاكلة ما سبقه من معالم. جامد، ميت، لا رمقَ لحياةٍ فيه. من نوعيّة الأبنية الّتي لا تقوى على بناء علاقةٍ طويلة الأمد مع الفرد. لمحو تلك الصّورة المرسومة في ذهن المواطن، خطا القيّمون طريقاً مختلفة. «بيت بيروت» لن يكونَ مجرّد ترميم حجارةٍ فتك بها الاقتتال. «بيت بيروت» لن يكونَ فقط مزاراً يأتي إليه تلامذة المدارس على مضض مرّةً في العام. «بيت بيروت» سيتحوّل متحفاً لذاكرة مدينة، شكّلت الحرب جزءاً كبيراً منها.

ولكن كيف ذلك؟ كيف يُمكن تحويل منزل «آل بركات»، إلى منزل «مدينة بيروت»؟ استملاك العقار من قبل البلديّة ليس وحدَه الحلّ. تكمن الفكرة في خلق ترابطٍ كامل بين النّاس والحجارة. وبشكل أدقّ، العمل على كسر مفهوم «الحجارة» من ذاكرتهم. وكذلك خلق مكانٍ لا يبذلُ مجهوداً كي يجذب النّاس إليه، بل يتقاتل النّاس حتّى يحظوا بفرصة لقائه.

من هنا، بدأ العمل. من فكرة «أنسنة المبنى». ليسَ سهلاً تحويل مكانٍ شهد موتاً كثيراً إلى مكانٍ يدعو إلى الحياة. لكن ما من شيءٍ مستحيل. حرص المهندس يوسف حيدر، الّذي أشرف على

أعمال التّرميم منذ بدايتها، على المحافظة على تفاصيل الشّقق الثّماني قدر المستطاع. «ما قمنا به أنّنا ثبّتنا اللّحظة، جمّدنا الوقت». شرحت كلمات حيدر الوُجهة. ولكن، هل يكفي «تثبيت اللّحظة» لخلق رباطٍ قويّ بين الجمهور والحجر؟ بالطّبع لا. بعد مرحلة التّثبيت، دخل القيّمون المرحلة الأكثر تحدّياً: التّفاعل.

طفلتان أمام المبنى(عباس سلمان)

وُجهة التّفاعل تظهر أوّلاً من خلال الشّكل. مبنًى قديم، وآخر مستحدث. الأوّل هو «بيت بيروت» 1989، والثّاني هو «بيت بيروت» 2016. في المبنى القديم، الوقتُ مجمّد. هو المبنى الأصليّ الّذي أنشئت الطّبقتان الأرضيّة والأولى منه في العام 1924. وفي العام 1936 صمّم المهندس فؤاد قزح الطّبقتين الثّانية والثّالثة منه. أمّا العام 2015 فشهد استحداث طبقتين. في «المبنى الأمّ» مكتبة مخصّصة لاستيعاب 30 ألف كتاب متخصّصة بالذّاكرة، مسرحٌ يستوعب سبعين شخصاً يُواجهون متاريس القنّاصة. هناك، سيتسنّى للجمهور إقامة ندوات تُحاكي الحرب ومعانيها. المبنى مخصّصٌ كذلك للمعارض المؤقّتة. وقد وُضعت ستارات على النّوافذ المرمّمة لهذه الغاية. في سطح «مبنى سكّان المدينة» يكتمل «التّفاعل». هناك، في البقعة الّتي يندمج نظرُ القابع فيها مع المدى، مشروعٌ لإقامة مقهًى.

والمبنى الثّاني؟

يُكمل المبنى الحديث نظريّة التّفاعل. 11 طبقةً تحدث تواصلاً بين الأصليّ والمُستحدث. للوصول

إلى هذه الغاية تمّت إزالة الدّرج الوسطي في «المبنى الأصليّ». في الأخير، الدّرجات شبه مدمّرة. ولأنّ الهدف هو «تثبيت اللّحظة»، من الضّروريّ استحداث طريق للتّنقّل بين الطّبقات، فكان المبنى الجديد. هنا، مكاتب مخصّصة للبحوث والدّراسات. الجديد فيها، أنّها ليست مخبّأة. ليست مخفيّة على الجمهور. تقبع في غرف زجاجيّة. لـ»شفافية» المكاتب هدفان: رؤية كلّ شيء، تماماً كما كان يقوى القنّاص على رؤية كلّ شيء. والتّواصل مع الجمهور.

ليس وحده التّواصل ما يسعى القيّمون إلى فرضه من جديد. في المكان محاولةٌ للاستفادة من الطّاقة الشّمسيّة، حيث تنتشر في كلّ طبقاته شفراتٌ زجاجيّةٌ تعمل على رد انعكاس الشّمس عن المكاتب. كما يتمّ العمل على تحويل الطّاقة الكهربائيّة إلى تكييف. ذاك نموذجٌ رائدٌ في مجال توفير الطّاقة.

ما يُحدثه التنقّل بين السّنين صعبُ الشّرح. أنتَ الآن، في العام القديم، وفي لحظة، تدخل الألفيّة الثّالثة. من غرفةِ جدرانُها محروقة، إلى درج حديث التّصميم، فطبقةِ تعلو أرضيّتُها آثار الموت، ثمّ الدّرجات نفسُها... يُجبرك الأمرُ على الابتسام.

ما تُحدثه رؤية جزءٍ ممزّق من ستارة، غرافيتي يُحاكي الأمجاد على حائط، ثقبٌ وقحٌ في جدار، فتحات ضيّقة يظنّ قنّاصٌ أنّها ملكه، تموّجاتٌ معماريّة تزيّن حافّة نافذة، اختفاء التّموّجات في نافذةٍ أخرى بعد تغيّر نوعيّة العمارة، سيكون مفعَماً بالتّأمّل.

وما يحدثُه تخيّل خطّ التراموای الّذي كان ينتهي بمواجهة المبنى، تطوّر شكل الحداثة كما شهده المبنى، المباني الثلاثمئة الّتي تُشبه «بيت بيروت» على طول خطّ السّوديكو، اللّحظة الّتي تكسّر فيها زجاج الطّبقة الثّانية، حركة يد «بيغن» (مقاتل سابق) وهو يخطّ على الحائط «بدّي إحكي الحقيقة، نفسي صارت بذيئة»، وقت العشاء في مطبخ لم يتبقَّ منه شيءٌ يُعرّف عنه، النّقاش الّذي دار بين مقاتلين قرّروا تحطيم الدّرجات كي لا يتسنّى لأحدِ الوصول إليهم، سيكون مليئاً بالإثارة والتّعب.

المبنى يُحافظ على "علامات الحرب" (عباس سلمان)